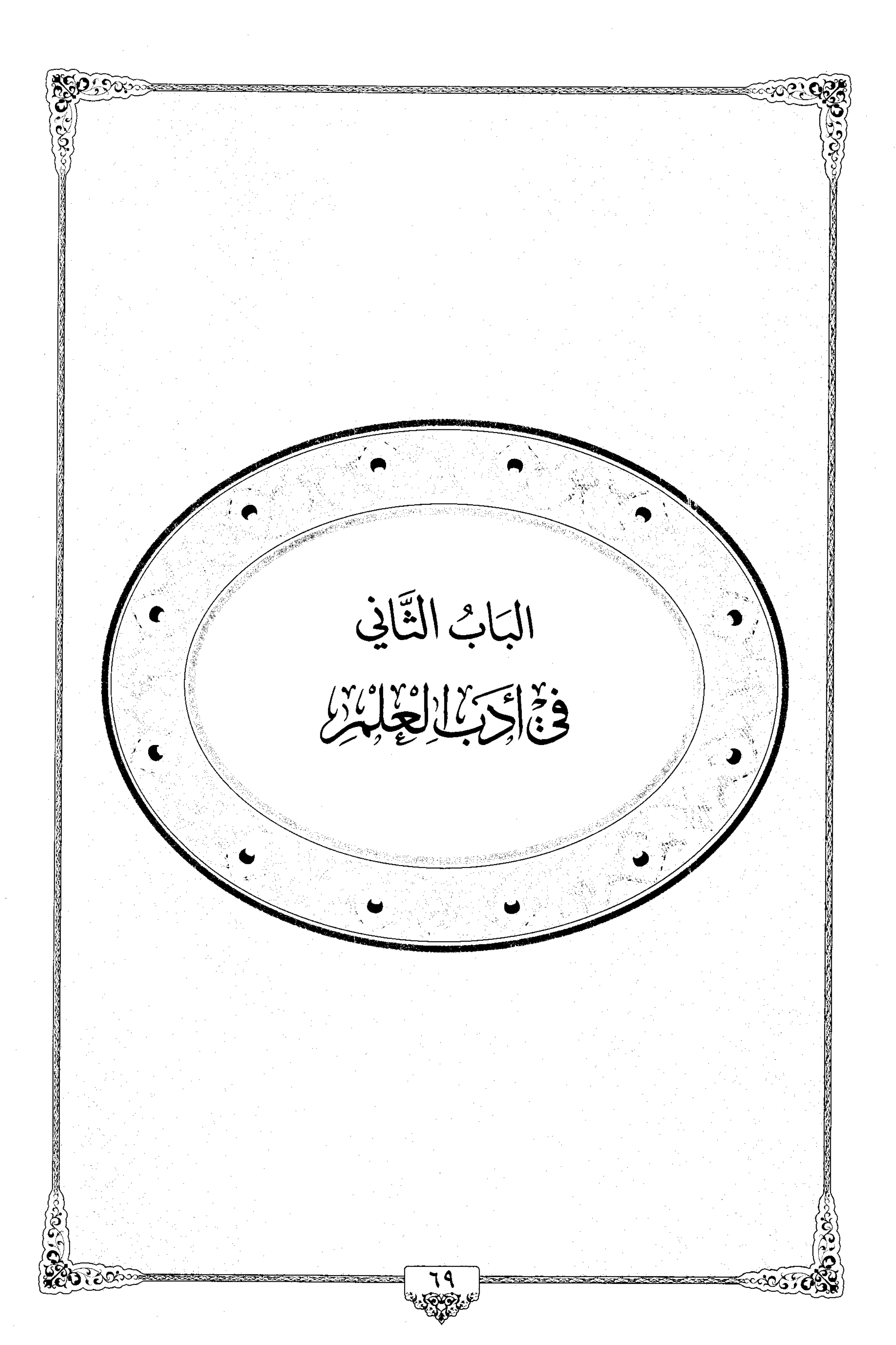
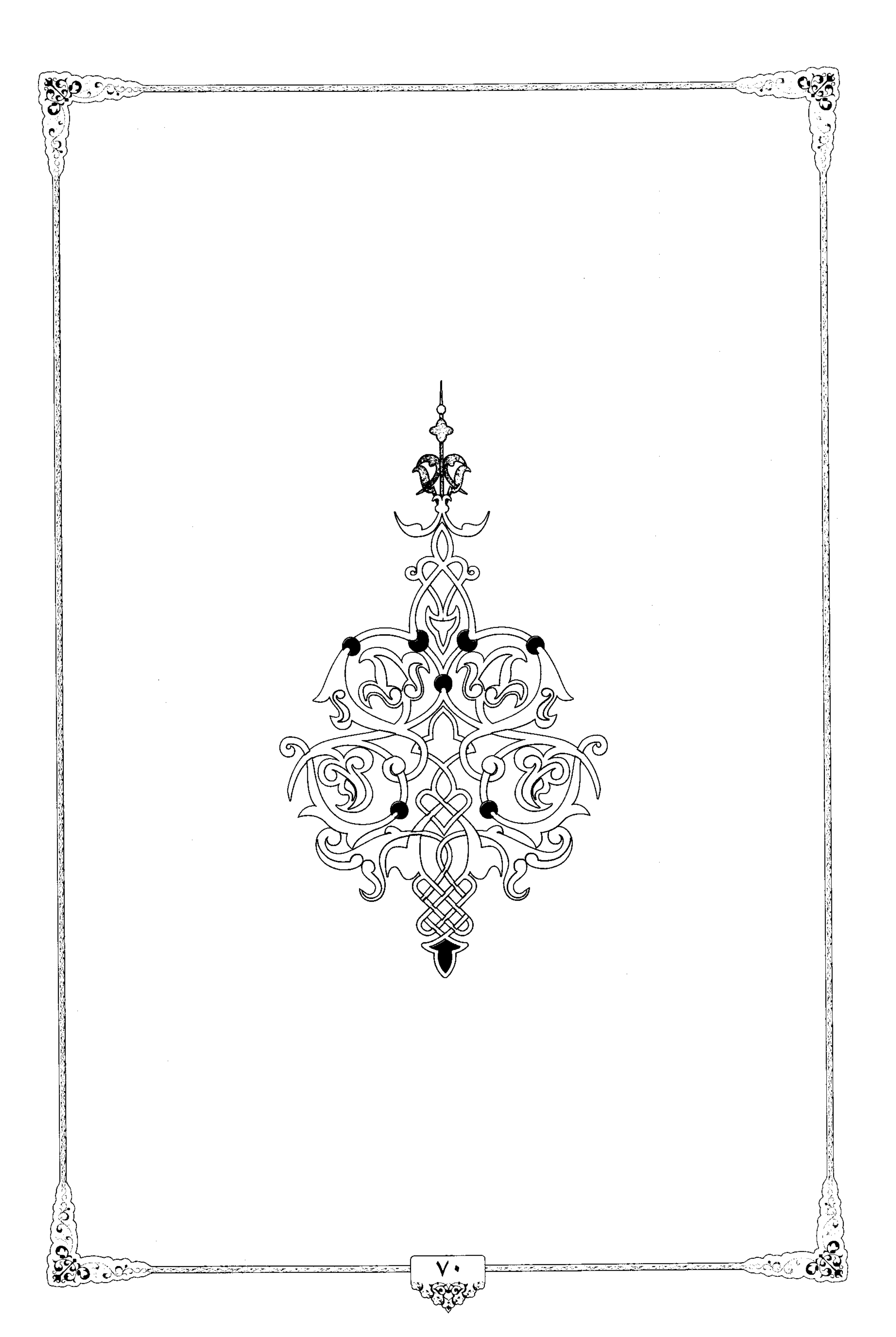
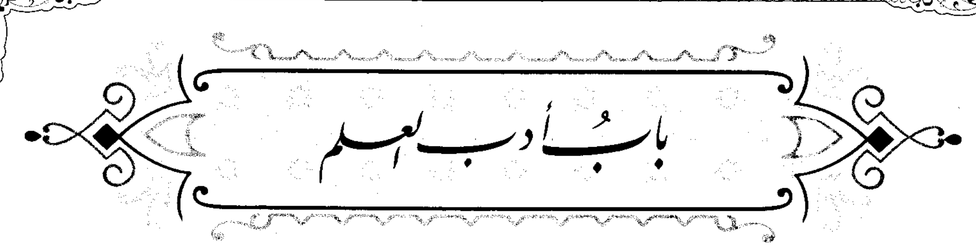


البَابُ الثَّاني

في أدبِ العِلْمِ





باب أدب العلم

اعلم : أن العلم أشرفُ ما رغب فيه الراغبُ ، وأفضلُ ما طلبه وجدَّ فيه الطالبُ ، وأنفعُ ما كسبه واقتناه الكاسبُ ؛ لأن شرفه ينُمُّ علىٰ صاحبه ، وفضله يَنمي عند طالبه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **فمنع من المساواة بين العالم والجاهل** ؛ لما قد خصَّ به العالم من فضيلة العلم .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ **فنفىٰ أن يكون غيرُ العالم يعقل عنه أمراً ، أو يفهم عنه زجراً** .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ عليه السلام : **إني عليمٌ ، أحبُّ كلَّ عليمٍ** »[1] .

ورویٰ أبو أمامةَ رضي الله عنه قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين ؛ أحدُهما عالمٌ ، والآخرُ عابدٌ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **فضلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلي علىٰ أَدناكم** »[2] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الناس أبناء ما يحسنون**)[3] .

وقال مصعب بن الزبير لابنه : (**تعلَّم العلمَ ؛ فإن يكن لك مالٌ** . . كان لك جمالاً ، **وإن لم يكن لك مالٌ** . . كان لك مَالاً)[4] .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : (**يا بَنيَّ ؛ تعلَّموا العلم** ، فإن كنتم سادةً . . فُقْتم ، وإن كنتم وسطاً . . سُدتم ، وإن كنتم سُوقةً . . عِشْتم)[5] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٣) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) من طريق ابن عائشة .

(٤) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٣٩٩) ، ونحوه في « الطيوريات » (٥٠٨) .

(٥) الخبر في « البصائر والذخائر » (٧/ ٣٣) من قول ابن المقفع .

وقال بعض الحكماء : (**العلمُ** : شرفٌ لا قديمَ له ، **والأدبُ** : مالٌ لا خوفَ عليه) .

وقال بعض الأدباء : (**العلمُ أفضلُ خَلَفٍ ، والعملُ به أكملُ شرفٍ**) .

وقال بعض البلغاء : (**تعلَّم العلمَ** ؛ فإنه يقوِّمُكَ ويسدِّدُكَ صغيراً ، ويقدِّمك ويسوِّدكَ كبيراً ، ويُصلح زيغكَ وفاسدَك ، ويُرغم عدوَّك وحاسدَك ، ويُقيم عِوَجَك وميلَك ، ويصحح همّتَك وأملَك)[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يُحسِنُ**)[2] .

فأخذه الخليل فنظمه شعراً فقال[3] : [من الخفيف]

لا يكــونُ العلِــيُّ مثــلَ الــدَّنــيِّ ... لا ولا ذو الــذَّكــاء مثــلَ الغبــيِّ
قيمةُ المرءِ قدرُ ما يحسنُ المَرْ ... ءُ قضــاءً مــنَ الإمــامِ علــيِّ

وليس يجهل فضلَ العلم إلا أهل الجهل ؛ لأن فضل العلم إنما يُعرَف بالعلم ، **وهٰذا أبلغ في فضله** ؛ لأن فضله لا يُعلَم إلا به ، **فلما عَدِمَ الجُهَّالُ العلمَ** الذي به يتوصَّلون إلىٰ فضل العلم . . **جهلوا فضلَه ، واسترذلوا أهلَه** ، وتوهَّموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المُقتناة ، والطُّرَف المُشتهاة . . أَولىٰ أن يكون إقبالُهم عليها ، وأَحرىٰ أن يكون اشتغالُهم بها .

وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم : (**العالمُ يعرفُ الجاهلَ** ؛ لأنه كان جاهلاً ، **والجاهلُ لا يعرفُ العالمَ** ؛ لأنه لم يكن عالماً)[4] .

وهٰذا صحيحٌ ، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصرافَ الزاهدين ، وانحرفوا عنه وعنهم انحرافَ المعاندين ؛ **لأن مَن جهل شيئاً . . عاداه** .

---

(١) انظر « نشر طي التعريف » (ص٢٣٥) .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/٢٣٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٥٢) .
(٤) أورده في « أخلاق الوزيرين » (ص ٣٩٠) .

وأنشدني ابنُ لَنْكَكَ لأبي بكر بن دريد[1] : [من الطويل]

جهلتَ فعاديتَ العلومَ وأَهلَهَا كذاكَ يُعادي العلمَ مَن هو جاهلُهْ
ومَن كان يهوىٰ أَن يُرىٰ متصدِّراً ويكره (لا أدري) أُصيبَتْ مَقاتلُهْ

وقيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (**العلمُ أفضلُ أم المالُ** ؟ فقال : بل العلم ، قيل : فما بالنا نرى العلماء علىٰ أبواب الأغنياء ، ولا نكاد نرى الأغنياء علىٰ أبواب العلماء ؟ فقال : **ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال ، وجهل الأغنياء بفضل العلم**)[2] .

وقيل لبعض الحكماء : (**لم لا يجتمعُ العلمُ والمالُ** ؟ فقال : لعزِّ الكمال)[3] .

وأُنشدتُ لبعض أهل العصر : [من الطويل]

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ فأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإنَّ امرأً لم يَحْيَ بالعلم ميِّتٌ فليس له حتى النشورِ نُشورُ

ووقف بعض المتعلِّمين بباب عالم ، ثم نادىٰ : (**تصدَّقوا علينا بما لا يُتعب ضرساً ، ولا يُسقم نفساً**) فأُخرِج له طعامٌ ونفقة .

فقال : (**فاقتي إلىٰ كلامكم أشدُّ من حاجتي إلىٰ طعامكم** ؛ إني طالبُ هدىً ، لا سائلُ ندىً) فأذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه ، فخرج جَذْلانَ فرِحاً وهو يقول : (**علمٌ أوضحَ لَبْساً خيرٌ من مال أغنىٰ نَفْساً**)[4] .

واعلم : أن كلَّ العلوم شريفةٌ ، ولكل علم منها فضيلةٌ ، والإحاطة بجميعها مُحالٌ .

قيل لبعض الحكماء : (**مَن يعرف كلَّ العلم** ؟ فقال : كلُّ الناس) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن ظنَّ أن للعلم غايةً . . فقد**

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ١٠٥) .
(٢) أورده في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٢) .
(٣) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٥٤) ، و« الكشكول » (٢/ ٣٦٤) .
(٤) الخبر في « البصائر والذخائر » (٨/٥) .

بخَسَه حقَّه ، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ » .

وقال بعض الحكماء : (لو كنا نطلب العلمَ لنبلغَ غايتَه . . كنَّا قد بدأنا العلمَ بالنَّقيصة ؛ ولٰكنّا نطلبه لننقصَ في كل يوم من الجهل ، ونزدادَ في كل يوم من العلم)[1] .

وقال بعضُ العلماء : (المتعمِّقُ في العلم كالسابح في البحر ، ليس يرىٰ أرضاً ، ولا يعرف طولاً ولا عرضاً) .

وقيل لحماد الراوية : أما تشبعُ من هٰذه العلوم ؟ فقال : استفرغنا فيها المجهودَ ، فلم نبلغ منها المحدود ، فنحن كما قال الشاعر : [من مشطور الرجز]

إذا قطَعْنا عَلَماً بدا عَلَمْ[2]

وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين ، وقال : أراهما له[3] : [من البسيط]

يا نفسُ خُوضي بُحورَ العلم أو غُوصي ... فالناسُ ما بين معمومٍ ومخصوصِ
لا شيءَ في هٰذه الدنيا نحيطُ به ... إلا إحاطةَ منقوصٍ بمنقوصِ

وإذا لم يكن إلىٰ معرفة جميع العلوم سبيل . . وجب صرف الاهتمام إلىٰ معرفة أهمها ، والعناية بأَولاها وأفضلها ، وأولى العلوم وأفضلها علم الدِّين ؛ لأن الناس بمعرفته يَرشُدون ، وبجهله يَضلُّون ؛ إذ لا يصحُّ أداء عبادةٍ جَهِل فاعلُها صفاتِ أدائها ، ولم يعلم شروطَ إجزائها ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فضلُ العلمِ خيرٌ من فضل العبادة »[4] .

---

(١) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٥٠٢) من كلام أرسطاطاليس .
(٢) الخبر في « البصائر والذخائر » (٩/١٣٧) ، وهو ضمن أبيات لجرير في « ديوانه » (ص ٤٢٤) ، وبعده : (فهنَّ بحثاً كمضلات الخدمْ) ، وعَلَماً : الجبل .
(٣) البيتان في « الحيوان » (٣/٥٢) بلا نسبة .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٩٣) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٥٥) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

وإنما كان كذلك ؛ لأن العلم يبعث علىٰ فضل العبادة ، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادةً ، فلزم علمُ الدِّين كلَّ مكلَّف .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم** »[1] ، وفيه تأويلان :

أحدهما : علم ما لا يسع المكلَّفَ جهلُه من العبادات .

والثاني : جملة العلم إذا لم يقم بطلبه مَن فيه كفاية .

وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالىٰ فَرْضَ بعضِه على الأعيان ، وفَرْضَ جميعِهِ على الكافة . . **كان أولىٰ مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكافة** ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

وروىٰ عبد الله بن عمرو[2] رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين : **أحدهما** يذكرون الله **تعالىٰ** ، **والآخر** يتفقَّهون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كِلا المَجلِسَين علىٰ خيرٍ** ، **وأحدُهما** أحبُّ إليَّ من صاحبه ، **أما هـٰؤلاء** . . فيذكرون الله **تعالىٰ** ويسألونه ، فإن شاء . . أعطاهم ، وإن شاء . . منعهم ، **وأما المجلسُ الآخر** . . فيتعلَّمون الفقهَ ، ويُعلِّمون الجاهلَ ، وإنما بُعِثتُ معلِّماً » ، فجلس إلىٰ أصحاب الفقه[3] .

وروىٰ مروان بن جناح ، عن يونس بن ميسرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخير عادةٌ ، والشرُّ لَجاجةٌ ، **ومَن يُرِدِ اللهُ به خيراً** . . **يفقِّهْهُ في الدِّين** »[4] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٤٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) في النسخ : (عمر) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٩) ، والهيثمي في « بغية الباحث » (٤٠) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣١٠) ، وابن ماجه (٢٢١) عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيارُ أمّتي علماؤُها ، وخيارُ علمائها فقهاؤُها** »(١) .

وروىٰ معاذ بن رفاعة ، عن إبراهيم بن عبد الرحمـٰن العذري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يحملُ هـٰذا العلمَ من كل خَلَفٍ عدولُه ، يَنفُون عنه تحريفَ الغالِينَ ، وانتحالَ المُبطِلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ** »(٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **عليكم بخلفائي** » قالوا : ومَن خلفاؤُك ؟ قال : « **الذين يُحيُون سنّتي ، ويُعلِّمونها عبادَ الله** »(٣) .

وروىٰ حميد ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **الفقهُ في الدِّين حقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، ألا فتعلَّمُوا ، وعلِّمُوا ، وتفقَّهُوا ، ولا تموتوا جُهّالاً** »(٤) .

وروىٰ سليمان بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّين ، ولَفَقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ ، وعمادُ الدِّين الفقهُ** »(٥) .

وربما مالَ بعضُ المتهاونين بالدِّين إلى العلوم العقلية ، ورأىٰ أنها أحقُّ بالفضيلة ، وأولىٰ بالتَّقدِمة ؛ استثقالاً لما تضمَّنه الدِّينُ من التكليف ، واسترذالاً لما جاء به الشرعُ من التعبُّد والتوقيف ، **والكلام مع مثل هـٰذا في أصل لا يتسع له هـٰذا الفصل** ، ولن ترىٰ ذلك فيمَن سلمت فطرتُه ، وصحت رَويّتُه ؛ **لأن العقل يمنع من أن يكون الناسُ هَمَلاً أو سُدىً** ، يعتمدون علىٰ آرائهم المختلفة ، وينقادون لأهوائهم المتشعِّبة ؛ لما تَؤُول إليه أمورُهم من الاختلاف والتنازع ،

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (١٢٧٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والديلمي في « الفردوس » (٢٨٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٠٩) .

(٣) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٦١) بلفظ : (رحمة الله علىٰ خلفائي) .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٤٤) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٥٩) إلىٰ قوله : « علىٰ كل مسلم » ، وأورد باقيه الديلمي في « الفردوس » (٤٥٩٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٨٤) ، والدارقطني (٣/ ٧٩) .

وتُفضي إليه أحوالُهم من التباين والتقاطع ، **فلم يستغنوا عن دِينٍ يأتلفون به ، ويتفقون عليه** ، ثم العقل مُوجِبٌ له أو متابعٌ عليه .

ولو تصوَّر هـٰذا المختلُّ التصوُّرِ **أن الدِّينَ ضرورةٌ في العقل ، وأن العقل للدِّين أصلٌ . . لقصَّر عن التقصير** ، وأذعن للحق ، ولـٰكن أهمل نفسه فضلَّ وأضلَّ .

وقد يتعلَّق بالدِّين علومٌ قد بيَّن الشافعيُّ رحمه الله تعالىٰ فضيلةَ كلِّ واحدٍ منها ، فقال : (**مَن تعلَّم القرآنَ** . . عظُمَت قيمتُه ، **ومَن تعلَّم الفقهَ** . . نبُل مقدارُه ، **ومَن كتب الحديثَ** . . قوِيَت حجّتُه ، **ومَن تعلَّم الحساب** . . جَزُلَ رأيُه ، **ومَن تعلَّم العربيةَ** . . رقَّ طبعُه ، **ومَن لم يصُنْ نفسَه** . . لم ينفعه علمُه)(١) .

❁ ❁ ❁

ولعمري ؛ إن صيانة النفس أصلُ الفضائل ؛ لأن مَن أهملَ صيانةَ نفسِه ثقةً بما منحه العلم من فضيلته ، وتوكُّلاً علىٰ ما يلزم الناس من صيانته . . سلبوه فضيلة علمه ، ووسموه بقبيح تبذُّله ، **فلم يفِ ما أعطاه العلمُ بما سلبه التبذُّلُ** ؛ لأن القبيح أنمُّ من الجميل ، والرذيلة أشهرُ من الفضيلة ؛ إذِ الناسُ لما في طباعهم من بِغْضة الحسد ونزاع المنافسة . . **تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ** ، فلا يُنصِفون محسناً ، ولا يحابون مسيئاً ، لا سيما مَن كان بالعلم موسوماً ، وإليه منسوباً ؛ **فإن زلته لا تُقال ، وهفوته لا تُعذَر** :

إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها ؛ فقد قيل في منثور الحكم : (**زلّةُ العالِم كالسفينة ، تغرق ويغرق معها خلق كثير**)(٢) .

وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام : مَن أشدُّ الناس فتنةً ؟ قال : (**زلَّة العالم ؛ إذا زلَّ . . زلَّ بزلَّته عالَمٌ كثير**)(٣) ، فهـٰذا وجه .

وإما لأن أهل الجهل بذَمِّه أَغرىٰ ، وعلىٰ تنقُّصه أحرىٰ ؛ ليسلبوه فضيلة

---

(١) « الرسالة » (ص ٧١) في السماعات .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) من قول ابن المعتز .

(٣) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) بلا نسبة .

التقدُّم ، ويمنعوه مباينة التخصُّص ؛ عناداً لما جهلوه ، ومقتاً لما باينوه ؛ **فإن الجاهل يرى العلم تكلُّفاً ولوماً ، كما أن العالم يرى الجهل تخلُّفاً وذماً** .

وأُنشِدتُ عن الربيع للشافعي رحمه الله ورضي عنه[1] : [من الوافر]

ومنزلةُ السَّفيهِ منَ الفقيهِ كمنزلةِ الفقيهِ منَ السَّفيهِ
فهٰذا زاهدٌ في قُربِ هٰذا وهٰذا فيه أزهَدُ مِنه فيهِ
إذا غلبَ الشقاءُ علىٰ سفيهٍ تنطَّعَ في مخالفةِ الفقيهِ

وقال يحيى بن خالد لابنه : (عليكَ بكل نوعٍ منَ العلم فخذ منه ؛ **فإن المرء عدوُّ ما جهل ، وأنا أكرهُ أن تكونَ عدوَّ شيءٍ من العلم**) ، ثم أنشد : [من الطويل]

تفنَّنْ وخُذْ من كلِّ علمٍ فإنَّما يفوقُ امرؤٌ في كلِّ فنٍّ له علمُ
فأنت عدوٌّ للذي أنت جاهلٌ به ولعلمٍ أنت تتقنُهُ سِلْمُ

وإذا صان ذو العلم نفسَه حقَّ صيانتها ، ولازم فِعْلَ ما يلزمها . . **أمِنَ تعيير المُوالي ، وتنقُّصَ المُعادي** ، وجمع إلىٰ فضيلة العلم جمالَ الصيانة ، وعزَّ النَّزاهة ، فصار بالمنزلة التي يستحقُّها بفضائله .

وروىٰ أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **العلماءُ ورَثةُ الأنبياء** ، إن الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلمَ »[2] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « للأنبياء على العلماء فضلُ درجتين ، **وللعلماء على الشهداء فضلُ درجةٍ** »[3] .

وقال بعض البلغاء : (**إن من الشريعة** : أن تُجِلَّ أهلَ الشريعة ، **ومن الصَّنيعة** : أن تَرُبَّ حَسَنَ الصَّنيعةِ)[4] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٤٨) ، و« مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٩٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) .
(٣) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٤) مرسلاً .
(٤) يربُّ : يحفظ الشيء ويراعيه .

فينبغي لمن استدلَّ بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل : أن ينفي عن نفسه رذائلَ الجهل بفضائل العلم ، وغفلةَ الإهمال باستيقاظ المعاناة ، ويرغبَ في العلم رغبةَ متحقِّقٍ لفضائله واثقٍ بمنافعه ، **ولا يلهيه عن طلبه كثرةُ مالٍ وجِدَةٌ** ، ولا نفوذُ أمرٍ وعلوُّ منزلة ؛ **فإن مَن نفذ أمرُه** . . فهو إلى العلم أحوجُ ، **ومَنْ علَتْ منزلتُه** . . فهو بالعلم أحقُّ .

روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن الحكمةَ تزيدُ الشَّريفَ شرَفاً** ، وترفع العبدَ المملوكَ حتىٰ تُجلِسَه مجالسَ المُلوكِ »[1] .

وقال بعض الأدباء : (**كلُّ عزٍّ لا يوطِّده علمٌ** فهو مَذَلّةٌ ، **وكلُّ علمٍ لا يؤيِّده عقلٌ** فهو مَضَلَّةٌ)[2] .

وقال بعض علماء السَّلف : (**إذا أراد الله تعالىٰ بالناس خيراً** . . **جعل العلمَ في ملوكهم** ، **والمُلكَ في علمائهم**) .

وقال بعض البلغاء : (**العلمُ عِصمةُ الملوك** ؛ لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردُّهم إلى الحكمة ، ويصدُّهم عن الأذيّة ، ويعطِّفُهم على الرَّعيّة ، **فمن حقهم** : أن يعرفوا حقه ، ويستبطنوا أهله)[3] .

* * *

فأما المالُ . . **فظلٌّ زائل** ، **وعاريةٌ مسترجَعة** ، وليس في كثرته فضيلة ، **ولو كانت فيه فضيلةٌ** . . **لخصَّ الله تعالىٰ به مَنِ اصطفاه لرسالته** ، واجتباه لنبوته ، **وقد كان أكثرُ أنبياء الله تعالىٰ** مع ما خصَّهم الله به من كرامته ، وفضَّلهم علىٰ سائر خلقه . . **فقراءَ لا يجدون بُلْغةً** ، ولا يقدرون علىٰ شيء ، حتىٰ صاروا في الفقر

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/١٧٣) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (٢/١٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧١) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/٢٦٦) .
(٣) أورده في « سراج الملوك » (١/١٢) .

مثلاً ، فقال البُحتُري[1] : [من الكامل]

فقــرٌ كفقــر الأنبيــاءِ وغُــربــةٌ   وصَبابـةٌ ليـس البـلاءُ بـواحـدِ

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله تعالى الكافرَ ، وحرمه المؤمنَ ، قال الشاعر[2] : [من السريع]

كـم كـافـرٍ بـالله أمـوالُـهُ   تـزدادُ أضعـافـاً علـىٰ كُفـرِهِ
ومـؤمـنٍ ليـس لـه درهـمٌ   يـزدادُ إيمـانـاً علـىٰ فقـرِهِ
يـا لائـمَ الـدَّهـرِ وأفعـالِـهِ   مشتغـلاً يُـزري علـىٰ دهـرِهِ
الـدَّهـرُ مـأمـورٌ لـه آمـرٌ   ينصـرفُ الـدَّهـرُ علـىٰ أمـرِهِ

وقد بيَّن علي بن أبي طالب عليه السلام فضلَ ما بين العلم والمال ، فقال : (العلمُ خيرٌ من المال ، العلمُ يحرُسُك ، وأنت تحرُسُ المالَ ، العلم حاكمٌ ، والمال محكومٌ عليه ، مات خُزَّانُ الأموال ، وبقي خُزّانُ العلم ، أعيانُهم مفقودةٌ ، وأشخاصُهم في القلوب موجودةٌ)[3] .

وسُئل بعضُ الحكماء : (أيُّما أفضلُ المال أم العلم ؟ فقال : الجواب عن هٰذا : أيُّما أفضلُ المالُ أم العقلُ ؟!) .

وقال صالح بن عبد القدوس : [من الكامل]

لا خيـرَ فيمَـن كـان خيـرُ ثنـائِـهِ   فـي النـاس قـولَهـم غنـيٌّ واجِـدُ

وربما امتنع الإنسانُ من طلب العلم لكِبَره وعلو سِنِّه ، واستحيا من تقصيره في صِغَره أن يتعلَّمَ في كِبَره ، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به ، وآثره على العلم أن يصير مبتدئاً به ، وهٰذا من خدع الجهل ، وغرور الكسل ؛ لأن العلمَ إذا كان فضيلةً . . فرغبةُ ذوي الأسنان فيه أولىٰ ، والابتداءُ بالفضيلة فضيلةٌ ، ولأَنْ يكون

---

(١) البيت في « ديوانه » (١/ ٥٠٧) .
(٢) الأبيات لأحمد بن عبيد الله الدارمي كما في « شعب الإيمان » (٢٤٦) ، وأوردها في « روضة العقلاء » (٢/ ٩٧٤) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٨٠) .

شيخاً متعلِّماً . . أولىٰ من أن يكون شيخاً جاهلاً .

حكي : أن بعض الحكماء رأىٰ شيخاً يحبُّ النظرَ في العلم ويستحِي ، فقال له : (**يا هٰذا؛ أتستحِي أن تكونَ في آخر عُمرك أفضلَ ممَّا كنت في أوله ؟!**)[1] .

وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعةٌ يتكلَّمون في الفقه ، فقال : (**يا عمِّ ؛ ما عندك فيما يقول هٰؤلاء ؟** فقال : يا أمير المؤمنين ؛ شغلُونا في الصِّغَر ، واشتغلنا في الكِبَر ، فقال : **لِمَ لا تتعلمه اليوم ؟** قال : أوَيَحسُنُ بمثلي طلبُ العلم ؟ قال : **نعم والله ؛ لأن تموتَ طالباً للعلم . . خيرٌ من أن تعيشَ قانعاً بالجهل** ، قال : وإلىٰ متىٰ يحسُنُ بي طلب العلم ؟ قال : **ما حسُنَتْ بك الحياةُ**)[2] .

ولأنَّ الصغيرَ أعذَرُ وإن لم يكن في الجهل عذرٌ ؛ لأنه لم تطل به مدّةُ التفريط ، ولا استمرت عليه أيامُ الإهمال ، وقد قيل في منثور الحكم : (**جهلُ الشباب معذورٌ ، وعلمُه محقورٌ**)[3] .

فأما الكبيرُ . . فالجهلُ به أقبحُ ، ونقصُه عليه أفضحُ ؛ **لأن علوَّ السِّنِّ إذا لم يَكسبه فضلاً** ، ولم يُفده علماً ، وكانت أيامُه في الجهل ماضية ، ومن الفضل خالية . . **كان الصغيرُ أفضلَ منه** ؛ لأن الرجاء له أكثر ، والأمل فيه أظهر ، **وحسبُكَ نقصاً في رجلٍ يكون الصغيرُ المُساوي له في الجهل أفضلَ منه !!** .

وأُنشِدتُ لبعض أهل الأدب : [من الطويل]

إذا لم يكن مَرُّ السِّنينَ مُترجِماً ... عن الفضلِ في الإنسانِ سمَّيته طِفلا
وما تنفعُ الأعوامُ حين تعدُّها ... ولم تستفدْ فيهنَّ عِلماً ولا فَضلا
أرى الدهرَ من سوء التصرُّف مائلاً ... إلىٰ كل ذي جهلٍ كأنَّ به جَهلا

---

(١) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٨٠٢) من قول سقراط .

(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٢٦٥) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٣٥٠) في ترجمة منصور بن محمد المهدي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٧٢١) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٨٢) من كلام ابن المعتز رحمه الله تعالىٰ .

وربما امتنع من طلب العلم لتعذُّر الكفاية ، وشغله اكتسابها عن التماس العلم ، وهٰذا وإن كان أعذرَ من غيره مع أنه قلَّما يكون ذلك إلا عند ذي شَرَهٍ رغيب ، وشهوةٍ مستعبدة . . فينبغي أن يصرفَ إلى العلم حظّاً من زمانه ؛ فليس كلُّ الزمان زمانَ اكتساب ، ولا بدَّ للمكتسب من أوقات راحةٍ واستراحةٍ وأيام عطلة ، ومَن صرف كلَّ نفسه إلى الكسب حتىٰ لم يترك لها فراغاً إلىٰ غيره . . فهو من عبيد الدنيا ، وأُسَراء الحرص ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكلِّ شيءٍ فترةٌ ، فمَن كانت فترتُه إلى العلم . . فقد نجا »[1] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كونوا علماءَ صالحين ؛ فإن لم تكونوا علماء . . فجالسوا العلماءَ ، واسمعوا علماً يدلُّكم على الهُدىٰ ، أو يردُّكم عن الرَّدىٰ » .

وقال بعض العلماء : (مَن أحبَّ العلمَ . . أحاطَتْ به فضائلُه) .

وقال بعض الحكماء : (مَن صاحَبَ العلماءَ . . وُقِّر ، ومَن جالس السفهاءَ . . حُقِّر)[2] .

وربما منعه من طلب العلم ما يظنُّه من صعوبته وبُعد غايته ، ويخشىٰ من قلَّة ذهنه وبُعد فطنته ، وهٰذا الظنُّ اعتذارُ ذوي النقص ، وخِيفةُ أولي العجز ؛ لأن الإخبار قبل الاختبار جهلٌ ، والخشيةَ قبل الابتلاء عجزٌ ، وقد قال الشاعر[3] : [من الخفيف]

لا تكونَنَّ للأمورِ هَيُوباً فإلىٰ خَيبةٍ يصيرُ الهَيُوبُ

وقال رجلٌ لأبي هريرة : (أريد أن أتعلَّم العلم وأخاف أن أُضيعَه ، فقال : كفىٰ بترك العلم إضاعةً)[4] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٢/١٥٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وبنحوه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/٢٨٦) .
(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/٢٧٣) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/٣٥٣) بدون نسبة ، والهيوب : الجبان ضعيف النفس ، ويكون دائماً علىٰ حذرٍ وخوف .
(٤) البيان والتبيين (١/٢٥٧) عن أبي هريرة النحويّ .

وليس ـ وإن تفاضلت الأفهام وتفاوتتِ الفِطَن ـ **ينبغي لمن قلَّ منهما حظُّه** : أن ييئسَ من نيل القليل أو إدراك اليسير الذي يخرج به من حَدّ الجهالة إلىٰ أدنىٰ مراتب التخصيص ؛ **فإن الماء مع لينه يؤثِّر في صُمِّ الصخور** .

وكيف لا يؤثِّر العلم الزكي في نفس راغبٍ شهيٍّ ، وطالبٍ خليٍّ ؟! **لا سيما وطالبُ العلم مُعانٌ** ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالب العلم** ؛ رضاً بما يطلب »[1] .

وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصوِّرَ في نفسه حُرْفةَ أهله[2] ، وتضايُقَ الأمور عليهم مع الاشتغال به ، حتىٰ يسِمُهم بالإدبار ، ويتوسَّمُهم بالحرمان ؛ **فإن رأىٰ مَحبرةً** . . تطيَّر منها ، **وإن وجد كتاباً** . . أعرض عنه ، **وإن رأىٰ متحلِّياً بالعلم** . . هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً ، ولا جاهلاً مدبراً .

ولقد رأيت من هٰذه الطبقة جماعةً ذوي منازلَ وأحوال **كنت أخفي عنهم ما يصحبني من مَحبرة أو كتاب** ؛ لئلا أكون عندهم مستثقَلاً وإن كان البعد منهم مؤنِساً ومصلحاً ، والقربُ منهم موحِشاً ومفسداً ؛ فقد قال بُزرجُمِهر : (**الجهلُ في القلب كالنَّزِّ في الأرض** ، يُفسدُ ما حوله) .

لٰكني اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الأشعث ، عن أبي عثمان ، عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خالقوا الناس بأخلاقهم ، وخالفوهم في أعمالهم** »[3] .

ولذلك قال بعض البلغاء : (**ربَّ جهلٍ وقَيتَ به علماً ، وسفَهٍ حمَيتَ به حِلماً**) .

وهٰذه الطبقة ممَّن لا يُرجىٰ لها صلاحٌ ، ولا يُؤمل لها فلاحٌ ؛ **لأن مَن اعتقد أن**

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٣٢١) عن سيدنا صفوان بن عَسّال المرادي رضي الله عنه موقوفاً ، ورفعه الإمام أحمد في « المسند » (٤/ ٢٣٩) .

(٢) **الحرفة** : المحرومية عن الحظّ والبخت .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٤٣) عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، وفي (أ) : (خالطوا الناس) وقد رواها عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٥٢) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوله .

العلم شينٌ ، وأن تركَه زينٌ ، وأن للجهل إقبالاً مُجدياً ، وللعلم إدباراً مُكدياً . . كان ضلالُه مستحكِماً ، ورشادُه مستبعَداً ، وكان هو الخامسَ الهالكَ ؛ الذي قال فيه علي بن أبي طالب عليه السلام : (اغدُ عالماً ، أو متعلِّماً ، أو مستمعاً ، أو محبّاً ، ولا تكن الخامسَ . . فتهلِكَ) وقد رواه خالد الحذاء ، عن عبد الرحمـٰن بن أبي بكرة ، عن أبي بكرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مسنداً[1] .

وليس لمن هـٰذه حالُه في العَذْل نفعٌ ، ولا في الاستصلاح مطمعٌ ، وقد قيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (ما لكم لا تعاتبون الجُهّال ؟ فقال : إنا لا نكلِّفُ العُمْيَ أن يبصروا ، ولا الصمَّ أن يسمعوا)[2] .

وهـٰذه الطائفةُ التي تنفرُ من العلم هـٰذا النفورَ ، وتعاندُ أهله هـٰذا العنادَ ، وترى العقلَ بهـٰذه المثابة ، وتنفر من العقلاء هـٰذا النفورَ ، وتعتقد أن العاقل محارَفٌ[3] ، وأن الأحمق محظوظ ، وناهيك بضلالِ مَنْ هـٰذا اعتقاده في العقل والعلم . . هل تكون لخيرٍ أهلاً ، أو لفضيلةٍ موضعاً ؟!

وقد قال بعض البلغاء : (أخبثُ الناس : المُساوي بين المحاسن والمَساوي) .

وعلةُ هـٰذا : أنهم ربما رأوا عاقلاً غيرَ محظوظ ، وعالماً غيرَ مرزوق ، فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه ، وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النَّوْكىٰ ، وإدبار أكثر الجهال ؛ لأن في العقلاء والعلماء قلةً ، وعليهم من فضلهم سمةٌ ؛ ولذلك قيل : (العلماء غرباء لكثرة الجهال)[4] .

فإذا ظهرت سمةُ فضلهم ، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم . . تنوَّهوا بالتمييز ،

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٢٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٨١) مرفوعاً ، وذكر الوقف (١٥٨٢) عن أبي الدرداء وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٦٧) .

(٣) المحارَف : المحروم الذي لا يتيسَّر له مكسبه ، وهو خلاف قولك : مبارك .

(٤) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٤) ، والقيرواني في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٥) من قول ابن المعتز .

واشتهروا بالتعيين ، فصاروا مقصودين بإشارة المتعيِّبين ، ملحوظين بإيماء الشامتين ، **والجهالُ والحمقىٰ لما كثروا ولم يتخصَّصوا** . . **انصرفت عنهم النفوس** ؛ فلم يُلحَظ المحرومُ منهم بطَرْفِ شامتٍ ، ولا قُصد المجدودُ منهم بإشارة عائب[1] .

فلذلك ظنَّ الجاهل المرزوق : أن الفقر والضيق مختصٌّ بالعلم والعقل ، دون الجهل والحمق ، **ولو فتشْتَ أحوالَ العلماء والعقلاء مع قلَّتهم** . . لوجدتَ الإقبال في أكثرهم ، **ولو خبرت أمور الجهال والحمقىٰ مع كثرتهم** . . لوجدت الحرمان في أكثرهم ، وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً ؛ لأن حظَّه عجب ، وإقباله مستغرب ؛ كما أن حرمان العاقل العالم غريب ، وإقلاله عجيب .

ولم يزل الناس علىٰ سالف الدهور في مثل ذلك متعجِّبين ، وبه معتبرين ؛ حتىٰ قيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (ما أعجبُ الأشياء ؟ قال : **نُجْحُ الجاهل** ، **وإكداءُ العاقل**)[2] .

لٰكن الرزق بالجِدِّ والحظِّ ، لا بالعلم والعقل . . حكمةٌ منه تعالىٰ ، يدلُّ بها علىٰ قدرته ، وإجراء الأمور علىٰ مشيئته .

وقد قالت الحكماء : (**لو جرت الأقسامُ علىٰ قدر العقول** . . **لم تعشِ البهائمُ**)[3] .

فنظمه أبو تمام الطائي فقال[4] : [من الطويل]

ينالُ الفتىٰ من عيشه وهْوَ جاهلٌ ويُكدي الفتىٰ في دهره وهْوَ عالمُ
ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكْنَ إذاً من جهلهنَّ البهائمُ

---

(١) **المجدود** : هو المحظوظ ، وهو مقابل للمحروم ، وفي (ج ، د ، هـ) : (المحدود) بالمهملة .
(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ٣٣) من قول الضحاك بن قيس الفهري ، **وإكداء العاقل** : خيبته .
(٣) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ١٢٤) ، **والأقسام** ـ جمع قِسْم ـ : وهو الحظ والنصيب .
(٤) البيتان في « ديوانه » (٣/ ١٧٨) .

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمىٰ(١) : [من البسيط]

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني ... سعيُ الفتىٰ وهْوَ مخبوءٌ له القدَرُ
يسعى الفتىٰ لأمورٍ ليس يُدركها ... والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ

علىٰ أن **العلم والعقل سعادةٌ وإقبال وإن قلَّ معهما المال** ، وضاقت عنهما الحال ، **والجهل والحمق حرمانٌ وإدبار وإن كثر معهما المال** ، واتسعت فيهما الحال ؛ لأن السعادة ليست بكثرة المال ، **فكم من مُكثرٍ شقي ، ومُقِلٍّ سعيد !!**

وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً **والجهل يضعه ؟!** أم كيف يكون العالم الفقير شقياً **والعلم يرفعه ؟!**

وقد قيل في منثور الحكم : (**كم من ذليلٍ أعزَّه علمه ، وكم من عزيزٍ أذلَّه جهله !!**) .

وقال عبد الله بن المعتز : (**نعمةُ الجاهل كروضةٍ علىٰ مزبلة**)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (كلَّما حسنت نعمة الجاهل . . ازداد فيها قبحاً)(٣) .

وقال بعض العلماء لبنيه : (**يا بَنيَّ ؛ تعلَّموا العلمَ** وإن لم تنالوا به من الدنيا حظّاً ؛ **فلأنْ يذمَّ الزمان لكم . . أحبُّ إليَّ من أن يذمَّ الزمانُ بكم**)(٤) .

وقال بعض الأدباء : (**من لم يفد بالعلم مالاً . . كسب به جمالاً**)(٥) .

وأنشد بعض أهل الأدب لابن طباطبا(٦) : [من الطويل]

حسودٌ مريضُ القلبِ يُخفي أنينَهُ ... ويُضحي كئيبَ البالِ عندي حزينَهُ
يلومُ علىٰ أنْ رحتُ للعلمِ طالباً ... أجمِّعُ من عند الرُّواة فنونَهُ
وأعرف أبكارَ الكلامِ وعُوْنَهُ ... وأحفظ مما أستفيدُ عيونَهُ

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ١٥٧) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣٩) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣٩) من قول ابن المعتز أيضاً .
(٤) أورده الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٤/ ٨٨) .
(٥) أورده الأبشيهي في « المستطرف » (١/ ٨٠) .
(٦) أورد الأبيات في « العقد الفريد » (٢/ ٢١٦) .

ويزعمُ أنَّ العلمَ لا يجلبُ الغنىٰ ... ويُحسنُ بالجهل الذميم ظنونَهُ
فيا لائمي دَعْني أُغالي بقيمتي ... فقيمةُ كلِّ الناس ما يُحسنونَهُ

وأنا أستعيذ باللهِ من خدع الجهل المُذِلَّة ، وبوادر الحمق المُضِلَّة ، **وأسأله السعادةَ بعقلٍ رادعٍ يستقيم به مَن زلَّ** ، وعلمٍ نافعٍ يستهدي به مَن ضلَّ ؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذاً استرذلَ اللهُ عبداً . . حظَّرَ عليه العلمَ** »[1] .

***

فينبغي لمن زهد في العلم : أن يكون فيه راغباً ، ولمن رغب فيه : **أن يكون له طالباً** ، ولمن طلبه : **أن يكون منه مستكثراً** ، ولمن استكثر منه : **أن يكون به عاملاً** ، ولا يطلب لتركه احتجاجاً ، ولا للتقصير فيه عذراً ، وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

فلا تَعذِراني في الإساءةِ إنَّهُ ... شرارُ الرجالِ مَن يسيءُ فيُعذَرُ

ولا يُسوِّف نفسَه بالمواعيد الكاذبة ، ويُمنِّيها بانقطاع الأشغال المتصلة ؛ **فإنَّ لكلِّ وقتٍ شغلاً ، وفي كلِّ زمانٍ عذراً** .

وقال الشاعر[3] : [من المتقارب]

نروحُ ونغدُو لحاجاتنا ... وحاجةُ مَن عاشَ لا تنقضِي
تموتُ معَ المرء حاجاتُهُ ... وتبقىٰ له حاجةٌ ما بقِي

ويقصد طلب العلم واثقاً بتيسير الله ، قاصداً وجه الله ، بنيةٍ خالصة ، وعزيمةٍ صادقة ؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن تعلَّمَ علماً لغير الله ، أو أراد به غيرَ الله . . فليتبوَّأْ مقعدَه من النارِ** »[4] .

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (٧٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البيت في « البيان والتبيين » (١/١٩٨) ، و« عيون الأخبار » (٣/١٠١) .
(٣) البيتان في « العقد الفريد » (٣/١٨٨) للصَّلَتان العبدي .
(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **تعلَّموا العلمَ قبلَ أنْ يُرفَعَ ، ورفعُهُ ذهابُ أهلِهِ ؛ فإنَّ أحدَكم لا يدري متىٰ يُحتاجُ** إليه ، أو متىٰ يُحتاجُ إلىٰ ما عنده ؟ »[(١)] .

وليحذر أن يطلبه لمِراء أو رياء ؛ فإن المماريَ به مهجورٌ لا ينتفع ، والمرائيَ به محقورٌ لا يرتفع ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا تَعلَّمُوا العلمَ ؛ لتُماروا به السفهاءَ ، ولا تَعلَّمُوا العلمَ ؛ لتُجادلوا به العلماءَ ، فمَن فعل ذلك منكم . . فالنارَ النارَ** »[(٢)] .

واعلم : أنه ليس المُماري به هو المُناظرَ فيه طلباً للصواب منه ، ولٰكنه القاصدُ لدفع ما يرد عليه من فاسدٍ أو صحيح ، وفيهم جاءت السُّنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يجادلُ إلا منافقٌ أو مُرتابٌ** » .

وقال الأوزاعي : (**إذا أراد الله بقومٍ شرّاً . . أعطاهم الجدَلَ ، ومنعهم العمَلَ**)[(٣)] .

وأنشد الرِّياشيُّ لمصعب بن عبد الله[(٤)] : [من الوافر]

أُجــادلُ كــلَّ معتــرضٍ ضنيــنٍ ... وأجعــلُ دينَــهُ غــرضــاً لــدينــي
وأتــركُ مــا علمــتُ لــرأي غيــري ... وليــس الــرأيُ كــالعلــم اليقيــنِ
ومــا أنــا والخصــومــةُ وهْــيَ لَبْــسٌ ... يصرِّفُ في الشمال وفي اليمينِ
فــأمّــا مــا علمــتُ فقــد كفــانــي ... وأمّــا مــا جهلــتُ فجنِّبُــونــي

وقد بيَّن ذلك بعضُ العلماء فقال لصاحبه : (**لا يمنعَنكَ حذَرُ المِراء من حسن المناظرة ؛ فإنَّ المُماريَ هو الذي لا يريد أن يتعلَّمَ منه أحدٌ ، ولا يرجو أن يتعلَّمَ من أحدٍ**)[(٥)] .

---

(١) أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٣٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٨٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٣٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .
(٣) رواه الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (١/ ٥٥٤) .
(٤) الأبيات ضمن قصيدة أوردها ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٧٨٥) ، وفي (أ) : (شين) ، وفي (ج ، د) : (شيء) .
(٥) الأدب الكبير (ص ٢٧٢) ضمن « آثار ابن المقفع » .

واعلم : أن لكلِّ مطلوبٍ باعثاً ، **والباعث على المطالب شيئان** : رغبةٌ أو رهبةٌ ، فليكنْ طالبُ العلم راغباً راهباً .

أما الرغبةُ : ففي ثواب الله تعالىٰ لطالبي مرضاته ، وحافظي مفترَضاته .

وأما الرهبةُ : فمن عقاب الله تعالىٰ لتاركي أوامره ، ومهملي زواجره .

فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة . . أدَّتا إلىٰ كُنْهِ العلم ، وحقيقة الزهد ؛ لأنَّ الرغبةَ أقوى الباعثَينِ على العلم ، والرهبةَ أقوى السببين في الزهد .

وقد قالت الحكماء : (**أصلُ العلمِ** : الرغبةُ ، **وثمرتُه** : السعادةُ ، **وأصلُ الزهدِ** : الرهبةُ ، **وثمرتُه** : العبادةُ ، **فإذا اقترن الزهد والعلم . . فقد تمَّت السعادةُ** ، وعمَّت الفضيلةُ ، **وإن افترقا . . فيا ويحَ مفترقَينِ ، ما أضرَّ افتراقَهما** ، وأقبحَ انفرادَهما !!) .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن ازدادَ في العلم رُشْداً ، ولم يزدَدْ في الدنيا زُهْداً . . لم يزدَدْ من الله إلا بُعْداً** »[1] .

وقال مالك بن دينار : (**مَن لم يؤتَ من العلم ما يقمعُه ؛ فما أُوتيَ من العلم . . لا ينفعُه**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**الفقيهُ بغير ورعٍ** ؛ كالسراج يضيءُ البيتَ ، ويُحرقُ نفسَه)[3] .

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٨٨٧) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٥٢) .

(٣) بمعناه رواه الطبراني مرفوعاً في « المعجم الكبير » (٢/ ١٦٥ـ١٦٦) .

فَصْلٌ
[في أسباب التقصير في العلم]

واعلم : أن للعلوم أوائلَ تؤدِّي إلىٰ أواخرها ، ومداخلَ تفضي إلىٰ حقائقها ، فليبتدىءْ طالبُ العلم بأوائلها ؛ لينتهيَ إلىٰ أواخرِها ، وبمداخلها ؛ ليفضيَ إلىٰ حقائقها ، ولا يطلبِ الآخِرَ قبل الأول ، ولا الحقيقةَ قبل المدخل . . فلا يدركَ الآخِرَ ، ولا يعرفَ الحقيقةَ ؛ لأنَّ البناءَ علىٰ غير أسٍّ لا يُبنَىٰ ، والثمرَ من غير غرسٍ لا يُجنَىٰ .

ولذلك أسبابٌ فاسدةٌ ، ودواعٍ واهيةٌ :

فمنها : أن يكونَ في النفس أغراضٌ تختصُّ بنوعٍ من العلم ، فيدعو الغرضُ إلىٰ قصد ذلك النوع ، ويعدل عن مقدّماته ؛ كرجل يؤثر القضاء ويتصدَّىٰ للحكم ، فيقصد من علم الفقه أدبَ القاضي وما يتعلق عليه من الدعوىٰ والبينات ، أو يحبُّ الارتسامَ بالشهادة ، فيتعلَّمُ كتاب الشهادات ؛ لئلا يصير موسوماً بجهل ما يعاني ، فإذا أدرك ذلك . . ظنَّ أنه قد حاز من العلم جمهورَه ، وأدرك منه مشهورَه ، ولم يرَ ما بقي منه إلا غامضاً طلبُه عناءٌ ، وعويصاً استخراجُه فناءٌ ؛ لقصور همته علىٰ ما أدرك ، وانصرافها عما ترك .

ولو نصحَ نفسَه . . لعلم أنَّ ما ترك أهمُّ مما أدرك ؛ لأنَّ بعض العلم مرتبطٌ ببعض ، ولكلِّ باب منه تعلُّقٌ بما قبله ، فلا تقوم الأواخر إلا بالأوائل وقد يصحُّ قيام الأوائل بأنفسها ، فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركاً للأواخر والأوائل ، فإذاً ليس يَعرَىٰ من لَوْم وإنْ كان تاركُ الكلِّ ألوَمَ .

ومنها : أن يحبَّ الاشتهار بالعلم ؛ إما لتكسُّبٍ أو لتجمُّل ، فيقصد من العلم ما يشتهر به من مسائل الجدل وطريق النظر ، ويتعاطىٰ علم ما اختُلِف فيه دون ما اتُّفِق عليه ؛ ليناظرَ على الخلاف وهو لا يعرف الوِفاق ، ومَن يجادلُ الخصومَ وهو لا يعرف مذهبه . . فذاك مخصومٌ .

ولقد رأيتُ من هـٰذه الطبقة عدداً قد تحقَّقوا بالعلم تحقُّقَ المتكلفين[1] ، واشتهروا به اشتهارَ المتبحِّرين[2] ، إذا أخذوا في مناظرة الخصوم.. ظهر كلامُهم ، وإذا سُئلوا عن واضح مذهبهم.. ضلَّت أفهامُهم ، حتىٰ إنهم ليخبطون في الجواب خبطَ عشواءَ ، فلا يظهر لهم صوابٌ ، ولا يتقرَّر لهم جوابٌ ، ثم لا يرون ذلك نقصاً إذا نمَّقوا في المجالس كلاماً مرصوفاً ، ولفَّقوا على المخالف حِجاجاً مألوفاً ، وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدىء ، ويتداوله الناشىء ، فهم دائماً في لغَطٍ مُضِلٍّ ، أو غلطٍ مُذِلٍّ .

ورأيت قوماً منهم يرون الاشتغالَ بالمذهبِ تكلُّفاً ، والاستكثارَ منه تخلُّفاً ، وحاجَّني بعضهم عليه[3] ؛ فقال : لأنَّ علمَ حافظ المذهب مستورٌ ، وعلمَ المُناظر عليه مشهورٌ .

فقلت : كيف يكونُ علمُ حافظ المذهب مستوراً وهو سريعُ الجواب ، كثيرُ الصواب ؟

فقال : لأنَّه إنْ لم يُسأل.. سكت فلم يُعرَف ، والمُناظرُ إن لم يُسأل.. سأل فعُرِف .

فقلت : أليس إذا سُئل الحافظُ فأصاب.. بان فضلُه ؟ قال : نعم .

قلت : أوليس إذا سُئل المُناظرُ فأخطأ.. بان نقصه ؟ وقد قيل : (عند الامتحان يُكرَم الرجلُ أو يُهان ؟!)[4] .

فأمسك عن جوابي ؛ لأنه إنْ أنكر.. كابر المعقولَ ، ولو اعترف.. لزمته الحجة ، والإمساك إذعان ، والسكوت رضاً ، ولأنْ ينقادَ إلى الحقِّ.. أَولىٰ من أن يستفزَّه الباطل .

---

(١) في النسخ عدا (أ) : (تحقق المتكلمين) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٧٣) : (أي : مثل رسوخهم وتمهرهم في إيراد الحجج العقلية والبراهين النقلية) .
(٢) في (أ) : (المتحزبين) ، وفي هامشها : (المجربين) ، وفي (ج) : (المتحدثين) .
(٣) عليه : علىٰ كون ذلك الاشتغال تكلفاً .
(٤) ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (٢/ ٤٣٥) .

وهٰذه طريقةُ مَنْ يقول : (اعرفوني) وهو غير عَروفٍ ولا معروف ، وبعيدٌ ممَّن لا يعرف العلمَ أن يُعرَف به .

وقد قال زهير[1] : [من الطويل]

ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خَليقةٍ وإنْ خالها تَخفَىٰ على الناس تُعلَمِ

ومن أسباب التقصير أيضاً : أنْ يغفلَ عن التعلُّم في الصِّغر ، ثم يشتغل به في الكبر ، فيستحي أن يبتدىء بما يبتدىء به الصغير ، ويستنكف عن أنْ يساويَه الحدَثُ الغَرير ، فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ، ويهتمُّ بحواشيها وأكنافها ؛ ليتقدَّمَ على الصغير المبتدي ، ويساويَ الكبيرَ المنتهي .

وهٰذا ممَّن قد رضي بخداع نفسه ، وقنع بمُداهنة حسِّه ؛ لأنَّ معقولَه ـ إن أحسَّ ـ ومعقولَ كلِّ ذي حسٍّ . . يشهد بفساد هٰذا التصوُّر ، وينطق باختلال هٰذا التخيُّل ؛ لأنه شيءٌ لا يقوم في وهم ، ولَجهلُ ما يبتدىءُ به المتعلِّمُ . . أقبحُ من جهل ما ينتهي إليه العالمُ .

وقد قال الشاعر : [من الوافر]

تَـرَقَّ إلـىٰ صغيـرِ الأمـرِ حتَّـىٰ يُـرَقِّيَـكَ الصغيـرُ إلـى الكبيـرِ
فتعـرِفَ بـالتفكُّـرِ فـي صغيـرٍ كبيـراً بعـدَ معـرفـةِ الصغيـرِ

ولهٰذا المعنىٰ وأشباهه كان التعلُّمُ في الصغر أحمدَ .

روىٰ مروان بن سالم ، عن إسماعيل ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثَلُ الذي يتعلَّمُ في صغره كالنقشِ على الحجر ، والذي يتعلمُ في كبره كالذي يكتبُ على الماء »[2] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (قلبُ الحدَثِ كالأراضي الخالية ، ما أُلقِيَ فيها من شيء . . قبلتْهُ)[3] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (ص ٣٧) بشرح ثعلب .
(٢) أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٤٢٠) ، وعزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٣٠) إلىٰ « المعجم الكبير » للطبراني .
(٣) أورده في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) ضمن وصية طويلة لابنه الحسن .

وإنما كان كذلك . . لأنَّ الصغيرَ أفرغُ قلباً ، وأقلُّ شغلاً ، وأيسرُ تبذُّلاً ، وأكثرُ تواضعاً .

وقد قيل في منثور الحكم : (**المتواضع من طلاب العلم أكثرُهم علماً** ؛ كما أن المكان المنخفض أكثرُ البقاع ماءً)[1] .

فأما أن يكون الصغيرُ أضبطَ من الكبير إذا عري من هـٰذه الموانع ، وأوعىٰ منه إذا خلا من هـٰذه القواطع . . فلا .

حُكي : أن الأحنف بن قيس سمع رجلاً يقول : (التعلُّمُ في الصغر كالنقش في الحجر ، فقال الأحنف : **الكبير أكثر عقلاً ، ولـٰكنه أشغل قلباً**)[2] .

ولعمري ؛ لقد فحص الأحنف عن المعنىٰ ، ونبَّه على العلة ؛ **لأن قواطع الكبير كثيرةٌ** :

فمنها : ما ذكرنا من **الاستحياء** ، وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن رقَّ وجههُ . . رقَّ علمُه**)[3] .

وقال الخليل بن أحمد : (**يرتعُ الجهل بين الحياء والكبر في العلم**)[4] .

ومنها : **وُفورُ شهواته وتقسُّمُ أفكاره** ، وقد قال الشاعر : [من مشطور الرجز]

صرفُ الهوىٰ عن ذي الهوىٰ عزيزُ
إنَّ الهـوىٰ ليـس لـه تمييـزُ

وقال بعض البلغاء : (**القلبُ إذا علِقَ كالرَّهن إذا غَلِقَ**)[5] .

ومنها : **الطوارق المزعجة** ، **والهموم المذهلة** ، وقد قيل في منثور الحكم : (**الهمُّ قيدُ الحواسِّ**) .

---

(١) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، والقيرواني في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٥) من قول ابن المعتز .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٧) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٥) ، و« مجمع الأمثال » (٣/ ٤٢٥) .

(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٩٣) .

(٥) يقال : غَلِقَ الرهنُ غُلوقاً : إذا بقي في يد المرتهن لا يقدر علىٰ تخليصه .

وقال بعض البلغاء : (مَن بلغ أَشُدَّه . . لاقىٰ من العيش أَشَدَّه) .

ومنها : كثرة أشغاله ، وترادف خلاله ؛ حتىٰ إنَّها لتستوعب زمانَه ، وتستنفد أيامَه ؛ فإنْ كان ذا رئاسة . . ألهَتْه ، وإنْ كان ذا معيشة . . قطعَتْه ؛ ولذلك قيل : « تفقَّهُوا قبلَ أنْ تُسَوَّدُوا »[1] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (الشغلُ مَجهَدةٌ ، والفراغُ مَفسَدةٌ)[2] .

فينبغي لطالب العلم : ألاّ يَنِيَ في طلبه[3] ، وينتهزَ الفرصة به ، فربَّما شحَّ الزمانُ بما سمح ، وضنَّ بما منح ، ويبتدىء من العلم بأوله ، ويأتيه من مدخله ، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرُّ جهلُه . . فيمنعَه ذلك من إدراك ما لا يسع جهلُه ؛ فإنَّ لكل علم فُضولاً مُذهِلة ، وشذوراً مُشغِلة ، إنْ صرف إليها نفسَه . . قطعته عمَّا هو أهمُّ منهاً .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : (العلمُ أكثرُ من أن يُحصَىٰ ، فخُذُوا من كلِّ شيءٍ أحسنَهُ)[4] .

وقال المأمون بن الرشيد رحمهما الله : (ما لم يكن من العلم بارعاً . . فبطونُ الصحف أولىٰ به من قلوب الرجال) .

وقال بعض الحكماء : (بترك ما لا يعنيك يتمُّ لكَ ما يعنيك)[5] .

ولا ينبغي أن يدعوَه ذلك إلىٰ ترك ما استصعب عليه إشعاراً لنفسه أن ذلك من فضول علمه ، وإعذاراً لها في ترك الاشتغال به ؛ فإن ذلك مطيَّةُ النَّوْكىٰ ، وعذرُ المقصِّرين .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٤٩) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعلَّقه عنه البخاري في « صحيحه » (كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة) .

(٢) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٤) ، وفي « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٤٨) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) ألاّ يني : ألاّ يَفْتُرَ .

(٤) أورده في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٦٩) .

(٥) روىٰ نحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٨٥) .

ومن **أخذ من العلم ما تسهَّل** ، **وترك منه ما تعذَّر** . . **كان كالقنَّاص** ؛ **إذا تعذَّر** عليه الصيدُ . . تركه فلا يرجعُ إلا خائباً ؛ إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعاً ، **كذلك العلم كلُّه صعب علىٰ من جهله** ، سهل علىٰ من علمه ؛ لأنَّ معانيَه التي يُتوصَّل إليها مستودَعةٌ في كلام مترجِم عنها ، **وكلُّ كلامٍ مستعملٍ فهو يجمع لفظاً** مسموعاً ، ومعنىً مفهوماً ، **فاللفظ** كلام يُعقَل بالسمع ، **والمعنىٰ** تحت اللفظ يُفهَم بالقلب .

وقد قال بعض الحكماء : (**العلومُ مطالعُها من ثلاثة أوجهٍ** : قلب مفكِّر ، ولسان معبِّر ، وبيان مصوِّر)(١) .

فإذا عقل الكلامَ بسمعه . . **فهِمَ معانيَه بقلبه** ، وإذا فهِمَ المعانيَ . . سقط عنه كلفة استخراجها ، وبقي عليه معاناةُ حفظها واستقرارها ؛ **لأنَّ المعانيَ شواردُ تضلُّ بالإغفال** ، والعلومَ وحشيّةٌ تنفرُ بالإرسال ، **فإذا حفظها بعد الفهم** . . **أنِسَتْ** ، وإذا ذاكر بها بعد الأنس . . رسَتْ .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن أكثرَ المذاكرةَ بالعلم** . . **لم ينسَ ما علم** ، **واستفاد ما لم يعلمْ**)(٢) .

وقال الشاعر(٣) : [من الطويل]

إذا لـم يُـذاكِـرْ ذو العلـوم بعلمِـهِ ... ولم يستفِدْ علماً نسِيْ ما تعلَّما
فكم جامعٍ للكُتْبِ في كلِّ مذهبٍ ... يزيدُ على الأيام في جَمْعه عمىٰ

وإنْ لم يفهم معانيَ ما سمع . . **كشف عن السبب المانع منها** ؛ ليعلم العلّة في

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١١٨) من قول عبد الرحمـٰن بن أحمد المقرىء .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، و« الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ٤١٥) من قول ابن المعتز .

(٣) أورد البيتين في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٤٣٠) .

تعذُّر فهمها ؛ فإنَّ بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصلُ إلىٰ تلافي ما شذَّ ، وصلاح ما فسد ، **وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام** :

إمّا أن يكون لعلَّةٍ في الكلام المترجِم عنها .

وإمَّا أن يكون لعلَّةٍ في المعنى المستودَع فيها .

وإما أن يكون لعلَّةٍ في السامع المستخرِج .

فإن كان السببُ المانعُ من فهمها لعلّة في الكلام المترجِم عنها . . لم يخلُ ذلك **من ثلاثة أحوال** :

أحدها : أن يكون لتقصيرِ اللفظ عن المعنىٰ ، فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنىٰ سبباً مانعاً من فهم ذلك المعنىٰ ، **وهـٰذا قد يكون من أحد وجهين** : إمّا من حَصَرِ المتكلِّم وعِيِّه ، وإمَّا من بلادته وقلَّة فهمه .

والحال الثانية : أن يكون لزيادة اللفظ على المعنىٰ ، فتصير الزيادة علّةً مانعةً من فهم المقصود منه ، **وهـٰذا قد يكون من أحد وجهين** : إمّا من هذر المتكلِّم وإكثاره ، وإمّا لسوء ظنِّه بفهم سامعه .

والحال الثالثة : أن يكون لمُواضَعةٍ يقصدها المتكلِّم بكلامه ، فإذا لم يعرفها السامع . . لم يفهم معانيَها .

فأما تقصير اللفظ وزيادته : فمن الأسباب الخاصة دون العامة ؛ **لأنَّك لستَ تجد ذلك عاماً في كل كلام** ، وإنَّما تجده في بعضه .

فإن عدلت عن **الكلام المقصِّر إلى المستوفي** ، وعن الزائد إلى الكافي . . **أرحْتَ نفسك من تكلُّف ما يُكِدُّ خاطرك** .

وإن أقمت على استخراجه : إما لضرورة دعتك إليه عند إعواز غيره ، أو لحميّة داخلتك عند تعذُّر فهمه . . **فانظر في سبب الزيادة والتقصير** :

فإن كان التقصيرُ لحصَر ، والزيادةُ لهذر . . **سهل عليك استخراجُ المعنىٰ**

منه[1] ؛ لأنَّ ما له من الكلام محصولٌ . . لا يجوز أن يكون المختلُّ منه أكثرَ من الصحيح ، وفي الأكثر على الأقل دليلٌ .

وإن كانت زيادة اللفظ على المعنىٰ لسوء ظنِّ المتكلِّم بفهم السامع . . كان استخراجُه أسهلَ .

وإن كان تقصير اللفظ عن المعنىٰ لسوء فهم المتكلِّم . . فهو أصعب الأمور حالاً ، وأبعدُها استخراجاً ؛ لأن ما لم يفهمه مكلِّمُك . . فأنت مِن فهمه أبعدُ ، إلا أن يكون لفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبَّه بإشارته على استنباط ما عجز عنه ، واستخراج ما قصَّر فيه ، فتكون فضيلةُ الاستيفاء لك ، وحقُّ التقدُّم له .

وأمّا المُواضعة فضربان : عامة وخاصة[2] :

فأمّا العامة : فهي مُواضعة العلماء فيما جعلوه ألقاباً تواضعوها لمعانٍ اتفقوا عليها[3] ، ولا يستغني المتعلِّم عنها ، ولا يقف علىٰ معنىٰ كلامهم إلا بها ؛ كما جعل المتكلِّمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقاباً تواضعوها لمعانٍ اتفقوا عليها ، ولست تجد من العلوم علماً يخلو من هٰذا ، وهٰذه المواضعة العامة تُسمَّىٰ عُرْفاً .

وأمّا الخاصة : فمواضعةُ الواحد يقصد بباطن كلامه غيرَ ظاهره ، فإنْ كانت في الكلام . . كانت رمزاً ، وإن كانت في الشعر . . كانت لغزاً .

فأمّا الرمز : فلستَ تجده في علمٍ معنويٍّ ، ولا في كلامٍ لغويٍّ ، وإنما يختص غالباً بأحد شيئين :

إمّا بمذهبٍ شنيعٍ يُخفيه معتقِدُه ، ويجعل الرمز به سبباً لتطلُّع النفوس إليه ،

---

(١) الحصر : العي في الكلام ، والعجز عن التعبير ، والهذر : كثرة الخطأ في الكلام ، وكلام هذر ؛ أي : كثير رديء ، أو ساقط .

(٢) المواضعة : هي عبارة عن اتفاق قومٍ علىٰ تسمية الشيء باسمٍ ما ، ينقل عن موضوعه الأول .

(٣) وقد جمع السيد الشريف الجرجاني رحمه الله تعالىٰ مقداراً يسيراً منها ، وسماه « التعريفات » .

واحتمالَ التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه .

وإمّا لما يدَّعي أربابُه أنه علم معوزٌ ، وأن إدراكه بديعٌ معجزٌ ؛ كالصنعة التي وضعها أربابها اسماً لعلم الكيمياء ، **فرمزوا بأوصافه** ، **وأخفَوا معانيَه ليوهموا الشحَّ به** ، والأسفَ عليه ؛ خديعةً للعقول الواهية ، والآراء الفاسدة ، وقد قال الشاعر : [من البسيط]

مُنِعْتَ شيئاً فأكثرْتَ الوَلُوعَ به   وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

ثمَّ ليكونوا بُرَآء من عُهدة ما قالوه إذا جُرِّب .

ولو كان ما تضمَّن هٰذينِ النوعينِ وأشباههما من الرموز معنىً صحيحاً ، وعلماً مستفاداً . . **لخرج من الرمز الخفيّ إلى اللفظ الجليّ** ؛ لأنَّ أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفقُ علىٰ سترِ سليم ، وإخفاءِ مفيد ، وقد قال زهير[1] : [من السريع]

السِّتْــرُ دونَ الفــاحشــاتِ ولا   يلقــاكَ دونَ الخيــرِ مــن سِتْــرِ

وربَّما استعمِل الرمزُ من الكلام فيما يُراد تفخيمُه من المعاني ، **وتعظيمُه من الألفاظ** ؛ ليكون أحلىٰ في القلوب موقعاً ، وأجلَّ في النفوس موضعاً ، **فيصير بالرمز سائراً** ، **وفي الصحف مخلَّداً** ؛ كالذي حُكي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة أنه قال : (**احفظ ميزانك من الندىٰ** ، **وأوزانك من الصدا**) .

يريد بحفظ الميزان من الندىٰ : حفظَ اللسان من الخنا ، **وبحفظ الأوزان من الصدا** : حفظَ العقل من الهوىٰ ، **فصار بهٰذا الرمزِ مستحسَناً ومدوَّناً** ، ولو قاله باللفظ الصريح ، والمعنى الفصيح . . لما سار عنه ، ولا استُحسِن منه .

وعلّةُ ذلك : أنَّ المحجوبَ عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار **فيما يحصل له** في النفوس من التعظيم ، وفي القلوب من التفخيم ؛ **ولذلك استُحلي** واستُحسن ، **وما ظهر منها ولم يحتجب** . . **هان واستُرذِل** ، **وهٰذا إنَّما يصحُّ** استحلاؤه فيما قلَّ ، وهو باللفظ الصريح مستقلٌّ .

---

(1) البيت في « ديوانه » (ص ٨٢) بشرح ثعلب .

فأمّا العلومُ المنتشرة التي تتطلَّعُ النفوس إليها . . فقد استغنت بقوة الباعث عليها ، وشدَّة الداعي إليها عن الاستدعاء لها برمزٍ مستحلىً ، ولفظٍ مستغرَب ، بل ذلك منفِّرٌ عنها ؛ لما في التشاغل باستخراج رموزها من الإبطاء عن دَرْكها وتصوُّر معانيها ، فهٰذا حال الرمز .

وأمّا اللغز : فهو تحدِّي أهلِ الفراغ ، وشغلُ ذوي البطالة ؛ ليتنافسوا في تباين قرائحهم ، ويتفاخروا في سرعة خواطرهم ، فيستكدُّوا خواطرَ قد مُنِحوا صحَّتَها فيما لا يُجدي نفعاً ، ولا يفيد علماً ، فهم كأهل الصِّراع الذين قد صرفوا ما مُنِحوه من صحة أجسادهم إلىٰ صراعٍ كَدُودٍ يصرع عقولهم ، ويهدُّ أجسامهم ، لا يكسبهم حمداً ، ولا يُجدي عليهمْ نفعاً .

انظر إلىٰ قول الشاعر : [من الرمل]

رجـلٌ مـات وخلَّـفْ رجـلاً ابـنَ أمِّ ابـنِ أبـي أختِ أبيـهِ
معَـهُ أمُّ بَنِـي أولادِهِ وأبـا أُخـتِ بَنِـي عـمِّ أخيـهِ[1]

أخبرني عن هٰذين البيتين وقد روَّعك صعوبةُ ما تضمَّنهما من السؤال إذا استكدَّك الفكرُ في استخراجه ، فعلمت أنه أراد ميتاً خلَّفَ أباً وزوجةً وعمّاً ، ما الذي أفادك من العلم ، ونفىٰ عنك من الجهل ؟ ألستَ بعد علمك تجهل ما كنت جاهلاً من قبله ؟

ولو أنَّ السائل قلب لك السؤال ، فأخَّر ما قدَّم ، وقدَّم ما أخَّر . . لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل بالأول ، وقد كددت فكرك ، وأتعبت خاطرك ، ثم لا تعدَم أن يرِدَ عليك مثلُ هٰذا مما تجهله ، فتكون فيه كما كنت فيما قبله .

---

(١) قال في « منهاج اليقين » (ص ٨٣) : (وحله ـ أي : قوله : « ابنَ أمِّ ابن أبي أخت أبيه » ـ : بتعيين أسماء لكل واحدٍ ، فنقول : الرجل الذي مات هو : زيد بن عمرو بن بشر مثلاً ، وأخت أبي الميت هي : هند بنت بشر المذكور وعمة الميت ، فابن أبي هند هو الرجل الذي تركه الميت ؛ وهو أبوه المسمىٰ بعمرو ، وعمرو بن أبي هند ـ أعني : ابن بشر ـ هو ابن أم هند ؛ لكونهما لأبوين ، « معه أمُّ بني أولاده » الضميران للرجل الثاني ، وإذا ثبت أنه أبو الميت . . فأم بني بني ذلك الرجل هي زوجة الميت ، « وأبا أخت بني عم أخيه » الضمير راجع إلى الرجل الميت ، وعم الأخ عم سواء كان أباً لابنه أو لأخت ابنه ، أو لم يكن أباً أصلاً) .

فاصرف نفسك ـ تولَّى اللهُ رشدَكَ ـ عن علوم النَّوْكىٰ ، وتكلُّفِ البطّالين ؛ فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعنيهِ »(١) .

ثم اجعل ما مَنَّ اللهُ به عليك من صحة القريحة ، وسرعة الخاطر مصروفاً إلىٰ علم ما يكون إنفاقُ خاطرك فيه لك مذخوراً ، وكَدُّ فكرك فيه مشكوراً ؛ فقد روىٰ سعيد بن أبي هند ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ : الصحةُ والفراغُ »(٢) .

ونحن نستعيذ بالله تعالىٰ من أن نغبنَ فضلَ نعمته علينا ، ونجهلَ نفعَ إحسانه إلينا ، وقد قيل في منثور الحكم : (من الفراغ تكون الصَّبوة)(٣) .

وقال بعض البلغاء : (مَن أمضىٰ يومه في غير حقٍّ قضاه ، أو فرضٍ أدّاه ، أو مجدٍ أثَّله ، أو حمدٍ حصَّله ، أو خيرٍ أسَّسه ، أو علمٍ اقتبسه . . فقد عقَّ يومه ، وظلم نفسه)(٤) .

وقال بعض الشعراء(٥) : [من الوافر]

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شُغْلاً ... وأسبابُ البَلاءِ من الفراغِ

فهٰذا تعليلُ ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتىٰ خرج بنا الاستيفاءُ إلى الإطالة ، والكشفُ إلى الإغماض .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلةٍ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٤١٢) ، والترمذي (٢٣٠٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٨) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٥) ، والصبوة : جهلة الفتوة .
(٤) أورده في « الكشكول » (١/٢٢٦) منسوباً لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وغرض المؤلف أن الإلغاز ليس من أحد هٰذه الأمور ؛ فالاشتغال به ظلم .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٩٩) .